

2014 01 27

بدأت هيلاري تقول: بعيد تعلمها القيادة، صادفت تشلسي وثلة من صديقاتها عاكفات على مناقشة أين كن سيتقدمن بطلبات الانتساب إلى الكلية. فكرت: ماذا؟ حان وقت ذلك؟ بالأمس القريب جداً كانت في حضني ونقرأ القطعة في القبعة (The Cat in the Hat) معاً. ليت تلك الأيام تعود من جديد! باتت بطولي ومن الصعب إجلاسها في حضني. رغم الألم الذي شعرت به إزاء احتمال مغادرتها للبيت، صممت على إخفاء مشاعري راجية أن يقع اختيارها على إحدى الكليات القريبة بما يمكننا -أقله- من قضاء العطل الأسبوعية معاً.

تعقد مدرسة أصدقاء سيدول أمسية جامعية كل سنة تدعو إليها خطباء مؤهلين يتولون مناقشة أحوال الكليات المختلفة وعمليات الانتساب إليها، بل وأنا رافقنا تشلسي إلى الأمسية للوقوف على ما يمكن الاطلاع عليه، في طريق العودة إلى البيت الأبيض بدت تشلسي غارقة في تفكير عميق، أخيراً أعلنت أنها راغبة في الذهاب إلى ستانفورد، ناسية النصيحة الواردة في الكتب جميعها التي كنت قد قرأتها حول كيفية تجسيد الأم المثالية، صرخت بأعلى صوتي «ستانفورد!»

هل أنت مجنونة؟ إنها على مسافة ثلاثة آلاف كيلومتر من هنا، لن تتمكن أبداً من زيارتك!».

بادر بل - ذلك الرجل الحكيم أحياناً - إلى قرص ذراعي وهو يقول لها إنها تستطيع أن تذهب إلى أي كلية توافق على قبولها، أدركت - بالطبع - أنه كان محقاً، أما أنا فلم أكن بعد جاهزة لقبول فكرة ابتعادها عني، غير أنني كنت واثقة من أنني سأكون مسرورة لسرورها هي إذا ما رحبت بها الكلية التي تختارها، ضغطت على أسناني وصممت على قضاء أطول وقت يمكن أن تتيحها لي قبل ذلك.

عند الكلام عن روح التمرد في أثناء مراوحة تشلسي، تعين علي أن أضحك وأنا أقرأ في الصحف نبأ ترشحها لنيل جائزة الصندوق القومي للصحة الإسبانية (إن إتش إف/ NHHF) في مهرجان جوائز السنوية بنيويورك. بحسب ما جاء في الصحافة كانت تشلسي جديرة بالثناء لـ «تحرير البالغات صغيرات السن، لاسيما اللاتينيات، على التحلي بالاستقلال وتثقيفهن في اتخاذ القرارات السليمة حول أنفسهن». و(الاستقلال) ليست الكلمة الدقيقة التي أميل إلى اختيارها لوصف سلوك مراهقتي المتشامخ.

كنت عاكفة على قراءة قصص عن صدمات عاناها آباء وأمهات ودعوا أبناءهم وبناتهم المغادرين إلى الجامعات؛ إحدى الأمهات عادت إلى المدينة الجامعية لاختلاس نظرة أخيرة إلى ابنتها فوجدت نفسها متسللة إلى ممر مهجعه مثل جاسوسة في أحد الأفلام البوليسية (أفلام بي). ثم كان هناك ذلك الأب الذي لم يكن يستطيع النوم ليلاً لتوجسه من ألا يكون ابنه حاصلاً على ما يكفي من النوم، ما أشبهه بيل! وأم مجنونة لم تطق مسح الرسائل الهاتفية الواردة من ابنتها الغائبة حتى بات جهازها مفرط الامتلاء الفوضوي فتعطل، ما أدى إلى حرمانها سماع صوت ابنتها حين كانت تريد فعلاً أن تتكلم، لعل الأسوأ من الجميع هم الآباء والأمهات الذين كانوا يتجولون في الغرف

الشاعرة، حيث كان أولادهم ذات يوم يعزفون الموسيقى بصخب يصم الأذان، لستُ على تلك الدرجة من السوء، أما بل فقد يروي قصة مختلفة.

كنت أرتاح كثيراً عند الاطلاع على هذه القصص لأن البؤس يحب البؤس، وكنت بالفعل أخاف لحظة اضطرارنا، بل وأنا لوداع تشلسي إلى ستانفورد، وأنا تلك التي بكت حين غادرت إلى الحضانة، نعم أعرف أن على الآباء والأمهات الصالحين أن يفرحوا لإنجازات أولادهم، وتملؤهم النشوة إزاء الحياة الرائعة التي تنتظرهم، تلك هي المشاعر التي راودتني في لحظات النضج، أما معظم الوقت فقد بقيت - للأسف - متسائلة عما جعلني أسمح لها بتخطي الصف الابتدائي الثالث.

تعاطفت مع الأمهات الأخريات المعانيات قلق الانفصال قبل الأوان إبان شهر من الإعداد المكثف في عرف أصدقاء سيدول المقدس: عرض الأم - البنت. أمهات طالبات السنة الثانوية الأخيرة في سيدول يشاركن في أمسية (سكيتشات) ساخرة تسلياً بناتهن الموشكات على التخرج، التحقت بركب عدد من أمهات صديقات تشلسي في تقديم سلسلة من الطرائف الساخرة أدت فيها كل منا دور ابنتها، بالغت في تكرار دورات راقصة الباليه وفي الكلام اللانهائي بالهاتف عن مشاريع الخروج، ضحك الجمهور كثيراً، في المشهد الافتتاحي قمنا نحن الأمهات بلف أنفسنا بصحائف ورقية وكأننا فرقة توغا، وغنينا أغنية أظن أنني قادرة على الطيران! (I Believe I Can Fly)، لن أفاجأ إذا استطاعت تشلسي فعل ذلك؛ هي قادرة على فعل الأشياء الأخرى كلها. رغم خوفي من خشبة المسرح، تمكنت من الاهتداء إلى هاوية التمثيل في أعماقي، إلا أن صوتي - لحسن حظي وحظ تشلسي - غرق وتلاشى في بحر الأصوات الأكثر موسيقية للأمهات أخريات في فقرة الافتتاح.

حفل تخرج تشلسي الثانوي كان مثل حفلات أخرى كثيرة حضرتها مع فرق رئيس واحد: ألقى في الحفل رئيس جمهورية الولايات المتحدة خطاباً، دفعتني

بل إلى البكاء حين طلب إلى الخريجات إدراك أن من شأن آبائهن وأمهاتهن أن يبدوا حزاني قليلاً أو حتى يتصرفوا بقدر من الغرابة، أذكر جيداً أنه قال: «نتذكر كما ترون، أيامكم الأولى في المدرسة مع النجاحات والإخفاقات جميعها التي كانت بين تلك اللحظة والآن، وعلى الرغم من أننا تعهدناكم لإيصالكم إلى هذه اللحظة ونحن فخورون جداً بكم، فإننا نبقي متطلعين إلى وضعكم في أحضاننا مرة أخرى كما سبق لنا أن فعلنا عندما كنتم صغاراً، وقراءة مادلين (Madeline) أو الآلة الصغيرة القادرة (The Little Engine That Could) على مسامعكم». ومسح دموعه، كما فعلت أنا والأمهات والآباء جميعهم الذين حضروا الحفل.

بعد تخرج تشلسي بوقت أقصر مما ينبغي، دقت ساعة مغادرتنا نحن الأمهات والآباء لمدينة صغارنا وصغيراتنا الجامعية، ومبادرة الصغيرات والصغار هؤلاء إلى إعادة ترتيب غرفهم (هن) وحوادثهم (هن) بحسب أهوائهم (هن). بعد أسابيع من تصور لحظة الفراق، كنت قد صلبت نفسي لمواجهة هذه المحنة، وأصبحت شبه جاهزة لمغادرة ستانفورد، أما بل فلم يكن قد فعل، فجاء مسكوناً بقلق شديد حول مغادرة تشلسي.

فيما يخص تشلسي، كانت أكثر من مستعدة لمغادرتنا، ولأن ستانفورد تتأخر كثيراً في الافتتاح خريفاً عن جل المدارس، كانت قد سمعت من كثير من صديقاتها وأصدقائها الطلاب والطالبات عن مفاجات الحياة الجامعية الإيجابية منها والسلبية، بما جعلها شديدة التوق للبدء. حاولت منعها من رؤية النظرات الحزينة في عيون أبويها.

رجوت أن نكون قد منحناها الأشياء المهمة فعلاً التي تحتاجها البنت لتنجح في الكلية، وتكون هي قد أقلت بإحكام على وجدانها الخاص في داخلها. (واصلت هيلاري): مثل جل الأمهات مهجوسة فعلاً حول ما إذا كانت ستربي

صديقات وأصدقاء جيدين يحبونها كرمى لعينها هي لا بسبب هوية ومنصب أبويها، وما إذا كانت ستحب حصصها الدراسية وستتناول الوجبات المناسبة.

غير أنني كنت، خلافاً للأمهات الأخريات جميعين، مشغولة البال إزاء الأمن والخصوصية اللذين كانا يلازمان كون المرء ابنة رئيس الجمهورية. بل وأنا كنا واثقين من أن تشلسي كانت مؤهلة لتعتني بنفسها تلقائياً؛ كانت على الدوام إنسانة متوازنة، وعاقلة، وجيدة الانضباط، غير أن مشكلات العالم وعقده غير قابلة للتكهن، وما كنا لنستطيع تحصينها ضدها كما فعلنا طوال مدة عيشها معنا.

